صفات عباد الرحمن

١٠ ــ ترك شهادة الزّور

والإعراض عن اللغو

● **الخطبة الأولى:**

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش معاً في رحاب القرآن، وفي صحبة عباد الرحمن، الذين كرّمهم الله تعالى بذكرهم في كتابه، وشرّفهم بالنسبة إليه، والإضافة إلى ذاته المقدّسة: (عباد الرحمن).

ذكر الله تعالى أوصافهم في ليلهم ونهارهم، ذكر حالهم في أنفسهم، وحالهم مع ربهم، وحالهم مع النّاس، حالهم في أموالهم، وحالهم في أخلاقهم.

ذكر أحوالهم كلّها إيجاباً وسلباً، فهم يفعلون الصالحات، ويجتنبون الموبقات: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، يحافظون على الكليّات الخمس: الأديان، والأنفس، والعقول، والأعراض (أو الأنساب)، والأموال.

وصفهم الله بالمحافظة على هذا كلّه.

فإذا زلّت أقدامهم يوماً، فارتكبوا مُنكراً من المنكرات، أو اقترفوا موبقة من الموبقات، سُرعان ما يرجعون إلى الله، سُرعان ما يقرعون باب التوبة، سُرعان ما يقولون ما قال أبوهم آدم وأمّهم حوّاء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ

لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ليس عجيباً أن يخطىء ابن آدم إذا كان آدم نفسه قد أخطأ وأذنب، ولكن آدم محا خطيئته بالتوبة.. غسل معصيته بالرّجعة إلى الله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴿١٢٢﴾﴾ [طـــــه: ١٢١ ـ ١٢٢]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

ولذلك كان (عباد الرحمن) توّابين أوّابين: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧٠ ـ ٧١].

لا يحتاجون إلى كاهن يقفون بين يديه يعترفون له بذنوبهم، أو يقرون له بما ارتكبوه في علانيتهم وسرّهم، ما كلّفهم الله هذا، حسبهم أن يتوبوا بينهم وبين ربّهم، وقد فتح لهم باب التوبة على مصراعيه، ليس عليه حاجب، ولا بوّاب: «إنّ الله عزّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[1]، ويدعو عباده آناء الليل وآناء النهار، وإن ظلموا وعصوا وأسرفوا على أنفسهم: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

هكذا وصف الله عباد الرحمن.

ثمّ وصفهم بوصف جديد، هو موضوع خطبتنا هذا اليوم، وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣].

ما معنى: «لا يشهدون الزور»؟.

---

(١) رواه مسلم والنسائي عن أبي موسى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٨١٩/٢ برقم ١٩٢١).

أي: لا يشهدون شهادة الزور، فهي هنا مأخوذة من الشهادة، لا يورّطون أنفسهم في هذه الكبيرة، التي هي من أكبر الكبائر، كما روى الشيخان عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه، أنّ النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ـ ثلاثاً ـ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس [دلالة على أهمية ما يقول] فقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور» فما زال يكرّرها حتى قلنا: ليته سكت[1]، إشفاقاً عليه ﷺ، فإنّه كان يكرّر بعض الكلمات ثلاثاً لعظم خطرها، لينبه العقول والقلوب إليها، حتى تتفتح الأذهان والعقول، فإذا كان هناك من هو مشغول بأمر من أموره ولم يسمع الكلمة الأولى، كرّرها حتى تُسمع وتُعقل وتُنقل، وحتى تُغرس في القلوب غرساً.

المسلم لا يقول زُوراً، ولا يشهد زُوراً، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم إنّي أعوذ بك أن أقول زوراً، أو أغشى فجوراً، أو أكون بك مغروراً».

وكان يقول[2]: «عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله» ـ ثلاث مرات ـ ثمّ قرأ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١].

وإنّما عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله عزّ وجلّ، لما وراءها من تضييع الحقوق، ومن تأريث نار الخصومات بين الناس، وراءها ما وراءها، من أن يأكل القوي الضعيف، من أن يشتري بعض الناس الضمائر بأموالهم حتى يأتوا ليشهدوا بالباطل، ويضيّعوا الحق، لهذا كانت من أكبر الكبائر.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: الحديثان ١٣٥٧، ١٤٩١).

(٢) في حديث خُريم بن فاتك رضي الله عنه، الذي رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد، ورواه الطبراني في الكبير موقوفاً على ابن مسعود بإسناد حسن، كما قال المنذري (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦٣٤ ـ ٦٣٥ برقم ١٣٥٩).

عباد الرحمن لا يفعلونها، عباد الرحمن إذا شهدوا شهدوا بالحق، ولو كان ذلك على أنفسهم، أو والديهم، أو أقرب الناس إليهم، لا يمنعهم ـ كذلك ـ بُعد البعيد ولا عداوة العدو أن يشهدوا بالحق له، الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا﴾(١) [المائدة:٨]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

إذا طُلب عبدٌ من عباد الرحمن للحق شهد به، وقال ما يعلم، لم يخن، ولم يخالف، ولم يزوّر، ولم يزد في الكلام، ولم ينقص منه.

إذا طُلبت منه الشهادة لا يأبى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، بعض الناس لا يكذب في الشهادة، ولكنّه يكتمها، وربما كان في كتمانه إضاعة للحقوق، ربّما كان في كتمانه انتصار للباطل، ربّما كان في كتمانه ضياع الدين وضياع الدنيا معاً، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وهذا يدلّ على أنّ كتمان الشهادة من الكبائر، وصدق الله العظيم إذ يقول في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

كم من حقوق ضُيّعت؟ وكم من حُرمات انتهكت؟ وكم من أعراض أهينت؟ وكم من دماء أريقت؟ وكم من أرواح أزهقت؟ وكم من شعوب اضطهدت؟ وكم وكم.. من أجل أناس كتموا شهادة يجب أن يقولوها.

كم من أناس قيّدوا ألسنتهم، فلم يقولوا الحق، والحقّ مطلوب منهم، لم يقولوا كلمة بألسنتهم، ولم يقولوا كلمة بأقلامهم، حينما طُلب إليهم أن يشهدوا وأن يقولوا.

شهادة الحق هي التي تُعلي كلمة الله في الأرض، والشاهدون بالحق هم

---

(١) وتتمتها: ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾.

الذين يقومون بالشهادة، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله: ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ [المعارج: ٣٣]، لا يخافون لومة لائم، يعلمون أنّ ما يخاف الناس عليه لا يخافون هم عليه، فالناس يخافون على أرزاقهم أن تُنقص، أو على أعمارهم أن تُقطع، والأرزاق مضمونة، والأعمار محدودة، لا يستطيع أحد أن يزيد في رزقك ولا أن ينقص منه ذرّة، ولا يستطيع أحد أن يُؤخر أجلك أو يقدّمه لحظة: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

عباد الرحمن إذا طُلبوا للشهادة أدّوها على وجهها، لم يغيّروا، ولم يحرّفوا، ولم يبدّلوا، ولم يخونوا، ولم يكتموا.

هذا أحد التفسيرين للآية الكريمة.

والتفسير الثاني: «والذين لا يشهدون الزور» أي لا يحضرونه.

«يشهدون» هنا من الشهود، وليس من الشهادة، هم لا يحضرون الزور، ولا يجلسون مجالس الزور، ولا يذهبون إلى أماكن الزور، وفسّر الزور هنا بما شئت.

وقد تنوّعت عبارات المفسّرين في تفسير الزور هنا، وهي ـ كما قال الإمام ابن تيمية ـ من اختلاف التنوّع وليس من اختلاف التضاد.

هناك من قال: الزور هو الشرك، وهناك من قال: الزور هو الكذب، وهناك من قال: الزور أعياد المشركين، وهناك من قال: الزور هو اللهو والغناء، وهناك من قال: الزور هو النّياحة، وهناك من قال: الزور هو شر الخمر، وهناك من قال ومن قال.. وكلّها يجمعها أنّ الزور هو الباطل والمعصية.. هو الميل عن الحق.. هو البعد عن الخير وعن الطاعة.

ومعنى هذا أنّ عباد الرحمن لا يحضرون هذه الأماكن، ينزّهون أنفسهم أن يكونوا من جلسائها، فإنّ مجالس الخير تُؤثّر في أصحابها، ومجالس السوء ـ كذلك ـ تؤثر في أصحابها، وكلّنا يعرف الحديث الشريف عن حامل المِسْك

ونافخ الكير، وجليس الخير وجليس السوء[1].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: والأظهر من السياق أنّ المراد: لا يشهدون الزور، أي لا يحضرونه، ولهذا قال: «**وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً**» أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به، مرّوا ولم يتدنّسوا منه بشيء[2].

فهؤلاء لا يجلسون مجالس السوء، لا يشاركون المشركين والكفّار في أعيادهم، كالذين يحتفلون بأعياد غير المسلمين، وربّما مرّت عليهم أعياد المسلمين وهم لا يلقون لها بالاً.

هؤلاء لا يحضرون أعياد الكفّار، ولا يحضرون مجالس الكفر، ولا مجالس الباطل، ولا مجالس الفجور، لأنّ الذي يجلس فيها يناله رذاذ من إثمها.

ومن هنا كانت فلسفة الإسلام: إنّه إذا حرّم شيئاً، حرّم كلّ ما يؤدي إليه ويعين عليه، فلعن في الخمر عشرة[3]، ولعن في الربا آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه[4]، ولعن النائحة والمستمعة[5]، وذمّ المغتاب وسامع الغيبة.

---

(١) ونصّ الحديث الذي رواه البخاري، ومسلم، عن أبي موسى رضي الله عنه: «إنّما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير إمّا أن يحرّق ثيابك، وإمّا أن تجد ريحاً خبيثة» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٩٩ برقم ١٨٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٣/ ٣٢٩) ط. الحلبي.

(٣) روى أبو داود، والحاكم وصحّحه، من حديث ابن عمر: لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها» قال المناوي في الفيض: ورواه ابن ماجه عن أنس، قال المنذري: ورواته ثقات (٥/ ٢٦٨).

(٤) عن جابر رضي الله عنه قال: «لعن النبي ﷺ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء» رواه مسلم وغيره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٣٤ برقم ١٠٥٦).

(٥) روى أحمد وأبو داود عن أبي سعيد رضي الله عنه: «لعن الله النائحة والمستمعة» فيه =

وذلك أنّك إذا جلست مجلس سوء، فإنّك تشجّع أصحابه. لولا الحضور.. لولا الجلوس من النّاس، ما بقي هؤلاء في مجلسهم، ولكن استحسان الحاضرين والسامعين، وإنصاتهم لما يُقال ـ أو على الأقل سكوتهم عنه ـ يشجّع هؤلاء على منكرهم.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠] بمجرد جلوسكم إليهم، واستماعكم لهم، ومشاركتكم إيّاهم، أصبحتم مثلهم.

من هنا لمّا جيء إلى الخليفة الراشد ـ خامس الراشدين ـ عمر بن عبد العزيز بجماعة كانوا يشربون الخمر، فأمر بحدّهم ـ إقامة الحدّ عليهم ـ فقيل له: يا أمير المؤمنين إنّ فيهم رجلاً ليس منهم ـ لم يشاركهم في الشرب ـ ولكنّه جلس إليهم وهو صائم، فقال: صائم، ويجلس مع شاربي الخمر، وفي مجلس الخمر، به فابدأوا، إنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ وأمر أن يُبدأ بجلده وضربه.

ولا ينبغي للمؤمن أن يجلس في مكان المنكر، وقد جاء في الحديث: «.. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر»[1].

المؤمن ينزّه نفسه عن مجالس السوء، حتى لا يأخذه لهيب النّار التي تأكل هؤلاء من بعد، سيشاركهم شاء أم أبى، فالأولى أن يُبعد نفسه عنهم، وبخاصّة

= محمد بن الحسن بن عطية العوفي عن أبيه عن جده وثلاثتهم ضعفاء، انظر: (فيض القدير للمناوي: ٥/ ٢٧٢ برقم ٧٢٧١).

(١) رواه النسائي من حديث جابر مرفوعاً وإسناده جيد، ورواه الترمذي وقال: حسن غريب، والحاكم وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي ـ فيض القدير للمناوي: ٦/ ٢١١ ـ ٢١٢ برقم ٨٩٨٤)، والحديث له عدة شواهد يقوى بها، ذكرها الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٧٧، ٢٧٩)، وأوّله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمّام بغير إزار، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدخل حليلته الحمّام».

أنّ كثيراً من المجالس لا تخلو من فاكهة المجالس: الغيبة، والنميمة، والحديث عن أعراض النّاس، وكلّ هذا يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

كلمة واحدة يقولها الإنسان لو مزجت بماء البحر لمزجته، يهوي بها في النّار سبعين خريفاً ـ وهو لا يلقي لها بالاً ـ من سخط الله تعالى عليه.

من هنا كان من أوصاف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]: إذا اتفق مرورهم على مجالس اللغو، نزّهوا أنفسهم عنه: «كراماً» بمعنى أنّهم يكرمون أنفسهم أن يُشاركوا في هذا الباطل، إنّ أنفسهم أعزّ عليهم من أن يشاركوا في باطل، وأعمارهم أغلى عندهم من أن يضيّعوها في باطل وفي لغو.

الله تعالى وصف المؤمنين المفلحين، الذين كتب لهم الفردوس، هم فيها خالدون، فكان من أخصّ أوصافهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣] رأس مالهم أوقاتهم، فكيف ينفقونها في اللغو؟ لا يقبلون أن يضيّعوا أوقاتهم في مثل هذا، إنّ الوقت الذي يضيعونه في لغو، يمكن أن يسبّحوا الله فيه، أو يكبّروه، أو يهلّلوه، أو يذكروه ذكراً كثيراً.

كلمة واحدة من كلمات الخير تملأ صحائف حسنات الإنسان، وكلمة في مقابلها تسوّد صفحاته بالسيّئات والعياذ بالله، وقد قال الإمام الغزالي: إنّك تستطيع أن تبني بكلمة قصراً في الجنّة، ومن ضيّع قصراً أو كنزاً من الكنوز ليأخذ مكانه حصاة، فقد، خسر خسراناً مبيناً[1].

---

(١) ونصّ عبارته رحمه الله ـ كما في الإحياء ـ هي: «ولو هلّلت الله سبحانه وذكرته وسبّحته لكان خيراً لك، فكم من كلمة يُبنى بها قصر في الجنّة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز، فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها، كان خاسراً خسراناً مبيناً، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنّه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاقه الربح العظيم بذكر الله تعالى». انظر: الآفة الأولى.. الكلام فيما لا يعنيك (إحياء علوم الدين: ٢/ (١١٢) ط. دار المعرفة ـ بيروت.

أي أنّ الإنسان إذا لم ينفق وقته في الطاعة ـ حتى لو لم ينفقه في معصية ـ كان خاسراً، فما بالك إذا أنفقه في طريق المعصية؟! ما بالك إذا أنفقه في المكروهات التي تؤديّ إلى المشتبهات؟! والمشتبهات التي تؤدي إلى صغائر المحرّمات؟! والصغائر التي تؤدّي إلى الكبائر؟! والكبائر بريد الكفر والعياذ بالله تعالى.

عباد الرحمن يُنزّهون أنفسهم عن مثل هذا اللغو، حتى لو عرض لهم من عرض من الناس ـ يريد أن يجرّهم إلى اللغو ـ لا يجارونه، ولا يقابلون اللّغو بمثله، بل يعرضون عنه، ويوفّرون أوقاتهم، ويدخرون طاقاتهم، ويوفّرون جهودهم، لما هو خير وأبقى.

وصف الله جماعة من المؤمنين بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: ٥٥].

فهذا تكميل لما بدأ الله به من أوصاف عباد الرحمن، حينما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

هؤلاء هم عباد الرحمن:

«.. وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً».

«.. وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً».

إنّهم مشغولون بآخرتهم عن دنياهم، مشغولون بإصلاح النفس عن مجاراة النّاس، مشغولون بالحقّ عن الباطل، مشغولون بالجدّ عن الهزل، مشغولون بالبناء عن الهدم.

إنّهم لا يقيمون معارك جانبيّة تافهة من أجل أمور لا تُسمن ولا تغني من جوع، إنّهم مشغولون بمصايرهم، مشغولون بآخرتهم، مشغولون بهموم أمّتهم، مشغولون بآمال دينهم، مشغولون بمآسي المسلمين في كل مكان، و«من لا يهتمّ

بأمر المسلمين فليس منهم..»[1].

فما لهم وللّغو؟ وما لهم وللخصومات؟ وما لهم وللمعارك التافهة؟ إنّهم في شغل عن ذلك كلّه بما هو أعظم وأكبر، ولهذا وُصفوا بأنّهم «إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً».

قد يُشتمون، وقد يُسبّون، وقد يُساءُ إليهم، ولكنّهم متسامحون في حقّ أنفسهم.

لا يتسامحون في حقّ دينهم، يغارون على حرمات الله أن تُنتهك، يغضبون لله ولكتابه ولسنّة رسوله، ولكن من عرض لهم في أنفسهم فهم يُعرضون عنه، يقولون: «.. سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين»، كما قال الشاعر الصالح (محمود الورّاق):

سألزم نفسي الصفّح عن كلّ مذنب ... وإن كثرت منه عليّ الجرائم
فما الناس إلاّ واحد من ثلاثة ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم
فأمّا الذي فوقي فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحقّ والحقّ لازم
وأمّا الذي دوني فإن قال صنتُ عن ... إجابته عرضي وإن لام لائم
وأمّا الذي مثلي فإن زلّ أو هفا ... تفضّلت، إنّ الفضل بالحلم حاكم

أي أنّه مع كلّ الناس: عفوٌ، صفوحٌ، متخلّقٌ بأخلاق الله تبارك وتعالى.

هذا هو شأن عباد الرحمن، لا يشغلون أنفسهم بالخوض في الباطل، فإنّ أكثر النّاس خطايا، أكثرهم خوضاً في الباطل كما قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

---

(١) رواه الطبراني من رواية عبد الله بن جعفر ـ هو مختلفٌ فيه ـ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وتتمّته: «ومن لم يُصبح ويمسي ناصحاً لله، ولرسوله، ولكتابه، ولإمامه، ولعامّة المسلمين، فليس منهم» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥١٤، الحديث ٩٩٧).

لا يتكلّمون فيما لا يعنيهم، فـ «من حُسن إسلام المرءِ تركُهُ ما لا يعنيه»[1]، يعمرون أوقاتهم بالخيرات وعمل الصالحات، يعلمون أنّ كلمة واحدة من كلمات الخير تملأ الصحائف وتملأ الميزان، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «... والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض..»[2].

كلمة واحدة يثقل بها الميزان يوم القيامة، وترجح بها كفّة الحسنات على كفّة السيّئات، فما أحوج الإنسان إلى أن يُثقل ميزانه حتى يكون من أهل العيشة الراضية في جنّة عالية وحتى لا يخفّ ميزانه، فتصبح أمّه هاوية: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة: ١٠ ـ ١١].

كان عطاء بن أبي رباح، التابعيّ الفقيه الجليل، يقول: إنّ من كان قبلكم ـ يريد الصحابة رضوان الله عليهم ـ كانوا يعدّون من اللّغو كلّ ما عدا كتاب الله وسنّة رسوله، أو أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو ذكراً لله تعالى، أو ما لا بدّ منه في معيشة الدنيا. وما عدا ذلك يعتبرونه من اللّغو، لأنّهم كانوا يعملون أن عليهم حافظين كراماً كاتبين ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨] [ق: ١٧ ـ ١٨]. فكانوا يستحون أن تُنشر صحائفهم التي أَملَوها، فلا يجدوا فيها إلاّ ما لا ينفع (لا في الدين ولا في الدنيا).

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث غريب. ورواه أحمد، والطبراني في كتبه الثلاثة، عن الحسين بن علي، وقال الهيثمي: ورجال أحمد والكبير ثقات. وصحّحه الشيخ شاكر في المسند (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٥١ برقم ١٧٤١). وهو الحديث الثاني عشر من الأربعين النووية.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي مالك الأشعري وأوّله: «الطهور شطر الإيمان» وآخره: «والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجّة لك أو عليك، كلّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: الحديثان ١١٨، ٨٦٠)، وهو الحديث الثالث والعشرون من الأربعين النووية.

فيا أيها الإخوة المسلمون:

حاولوا أن تتخلّقوا بأخلاق عباد الرحمن، أن تكونوا إيجابيّين، أن تُنزّهوا أنفسكم عمّا يفعله اللاّهون العابثون من النّاس.

قولوا الحق، واشهدوا بالحق، ولا تحضروا مجالس الزّور أيًّا كان اسمها وعنوانها، وإذا مررتم باللّغو ـ أيًّا كان مضمونه أو عنوانه ـ فمرّوا عليه مرّ الكرام.

مرّ ابن مسعود رضي الله عنه ـ بمجلس لهو فلم يقف عنده، وبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[1] [الفرقان: ٧٢].

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقهنا في ديننا، وأن يغفر لنا ويرحمنا، إنّه هو الغفور الرحيم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

جاءتني أعداد من الرسائل، تشكو من ظاهرة أعتقد أنّها ظاهرة مرضيّة، ولا تليق بمجتمع مسلم.

تشكو هذه الرسائل من قسوة بعض الأزواج على زوجاتهم.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية (٧٢ من سورة الفرقان، نقلاً عن ابن أبي حاتم وغيره. انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩) ط. الحلبي.

obeikandl.com

هذا الرجل الذي يُعامل امرأته في بيته كأنّها متاع من متاع البيت، لا رأي لها، ولا تُستشار في أمر، لا يبشّ في وجهها، لا ترى بسمةً على شفتيه، لا تسمع منه كلمة طيّبة.

والعجيب في هذه الرسائل، أنّ بعضها تقول: إنّ زوجها رجل طيبّ ومتديّن، حرص على دينه، يُصلّي الصلوات الخمس، ويصلّي بعضها في المسجد، ويقرأ القرآن، ويدرس الحديث، ويقرأ الكتب الدينيّة، ولكنّه مع أهله خشن الطباع، قاسي القلب، فظّ غليظ، وهذا في الحقيقة ممّا يُعجب له أشدّ العجب.

إنّ المسلم قُدوته في ذلك رسول الله ﷺ، ورسوله الله ﷺ كان خير الناس لأهله، كما قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[1].

كان ألطف الناس معشراً، وأرقّهم حاشية، وألينهم جانباً مع أهله.

كان ـ رغم همومه الكثيرة: هم الدعوة، وهمّ الدولة ـ يقيم ديناً جديداً، وينشىء أمة جديدة، ويقيم دولة جديدة، ويحارب في جبهات شتّى: جبهة الوثنيين المشركين، وجبهة اليهود الغادرين وجبهة النصارى المتربصين، وجبهة المجوس المغرورين، وجبهة الطابور الخامس في الداخل (المنافقين)، جبهات عديدة كان يواجهها النبي ﷺ، ومع هذا لم يكن يشغله ذلك عن أمر بيته وأهله.

كان يصلّي حتى تتورّم قدماه، كان يبكي حتى تبلّل دموعه لحيته، ولكن لم يشغله حقّ ربّه عن حق أهله، كما لم يشغله حق دعوته ورسالته وأمّته عن حقّ أهله وزوجاته. فكان يجد من قلبه الكبير ما يتسع للاطفة هؤلاء الزوجات. وكان يمازحهنّ.. يطيبّ خواطرهنّ.. يسمع لهنّ الأحاديث كحديث أمّ زرع،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها، ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس، والحاكم إلاّ أنه قال: «خيركم خيركم للنساء» وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٥٥٣ ـ ٥٥٤ برقم ١١١٠).

وهنّ اثنتا عشرة زوجة، كل واحدة لها قصّة، ويقول لعائشة في النّهاية: «كنتُ لك كأبي زرع لأمّ زرع، إلاّ أنّه طلّقها وإنّي لا أطلّقك»[1].

وكان يشاورهنّ في كثير من الأمور، ويسمع لرأيهنّ.

شاور أمّ سلمة في الحديبية وأخذ برأيها[2]، على حين يزعم بعض النّاس أنّ هناك حديثاً يقول: «شاوروهن وخالفوهنّ»[3]، وهذا ليس بحديث، وهو مخالف للقرآن الذي يقول: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

المرأة ليست كمًّا مهملاً، ليست حجراً في البيت، إنّما هي إنسان، إنسان يشارك إنساناً، ولذلك جاء في الحديث: «آمروا النساء في بناتهنّ»[4] أي: إذا أردت أن تزوّج ابنتك فخذ رأي أمّها، لأنّها أعرف بها، وأخبر بعواطفها، وأدرى بما تخبّئه عنك من أسرارها، وأقرب إليها، فحاول أن تتعرّف على رأي الفتاة من أمّها.

المرأة ينبغي أن يُعرف حقّها، لا ينبغي للمسلم أن يُهمل امرأته، وأن

---

(١) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي. وقوله: «إلا أنّه طلقها وإني لا أطلقك» هو من رواية (الزبير بن بكار) كما ذكر الحافظ في الفتح، ومثله في رواية للطبراني، وزاد النسائي في رواية له والطبراني: قالت عائشة: يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع (شرح السنة للبغوي بتحقيق الأرناؤوط: ٩/ ١٦٨ ـ ١٨٠ برقم ٢٣٤٠).

(٢) وذلك حيثما أشارت عليه أن يخرج إلى أصحابه فيتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يكلّمهم، وقد فعل ذلك، يكلّمهم تحلّل كما تحلّل، وقبل ذلك كان أمرهم بالتحلّل من إحرامهم فعزّ عليهم ذلك ولم يفعلوا.

(٣) قال السخاوي: لم أره مرفوعاً. وانظر تعليقه في المقاصد الحسنة (رقمن ٥٨٥).

(٤) رواه أحمد، وأبو داود، عن ابن عمر رضي الله عنهما. وقال المنذري: فيه رجل مجهول. انظر (الفتح الرباني مع شرح بلوغ الأماني: ١٦/ ١٦١، (عون المعبود شرح سنن أبي داود: ٦/ ١١٩ برقم ٢٠٨١).

يدخل ويخرج وكأنّه ليس أحد في البيت، كما يفعل بعض النّاس للأسف، لا يكاد يرى امرأته، لا يكاد يأكل معها، يأتي متأخراً في اليل، ويذهب مبكّراً في النهار، وإذا جاء يأكل أو يشرب ثم يخرج، هذه ليست الحياة الزوجية في الإسلام.

الحياة الزوجيّة سكون ومودّة ورحمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١] ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

انظروا: «هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ» بكلّ ما يُوحي به معنى اللباس من القرب والالتصاق والسّتر والدفء والزينة.

هكذا ينبغي أن تكون المرأة مع زوجها، وهكذا ينبغي أن يكون الزوج مع امرأته.

هذا الذي نسمع عنه ليس من أخلاق الإسلام في شيء.

المرأة إنسان يجب أن يُرعى حقّه، يجب أن تُؤنس المرأة وتُلاطف، فالنبي ﷺ كان يمازح نساءه، سابق عائشة مرتين: مرّة سبقته وهي صغيرة السّنّ، خفيفة البدن، فلمّا سمنت بعد ذلك سابقها فسبقها، فقال لها ممازحاً: «هذه بتلك»[1] أي: مرّ: بمرّة (تعادل).

انظروا إلى هذا القدب الكبير الذي لم تشغله هموم الدعوة والجهاد عن ملاطفة أهله، هكذا ينبغي أن يكون المؤمن مع أهله، ينبغي أن يكون لطيف المعشر، وأن يكون إنساناً كريماً.

فيا أيّها الإخوة المسلمون.. يا أيّها الأزواج الصالحون:

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (١٩٧٩) عن عائشة، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح على شرط البخاري، كما رواه النسائي في عشرة النساء رقم (٥٦) ص(٩٠).

حاولوا أن تكونوا محمّديّين.. قرآنيّين، مع أهليكم وأزواجكم.

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

اللهم فقّهنا في ديننا، وعلّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علماً.

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودُنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا.

اللهم أكرمنا ولا تُهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللّهمّ أعنّا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا.

اللّهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين، اللّهمّ اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة الذين كفروا هي السّفلى.

اللّهمّ عليك بأعدائك أعداء الإسلام حيثما كانوا، اللّهمّ إنّا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللهم رُدّ عنّا كيدهم، وفُلّ حدّهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين.

﴿وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، اللهم آمين.

وصلّ اللهم على عبدك ونبيّك ورسولك محمّد، وعلى آله وصحبه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٥].

وأقم الصلاة.